

الادماج في القرآن الكريم «فراءة تحليلية بيانية نقدية في تفسير الثحر والنور»

د. المشي عبد الفناح محمؤد محمؤد^(*)

(*) أستاذ مشارك بقسم التفسير و علوم القرآن - كلية القرآن الكريم - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
- المملكة العربية السعودية.

ملخص البحث:

تقوم فكرة البحث على دراسة الإدماج في تفسير التحرير والتنوير من زاوية تحليلية بيانية نقدية، والإدماج فن من فنون البلاغة القرآنية العالية، التي قلَّ التنبيه عليها من قبل المفسرين حتى بلغت حدَّ الإهمال بل النسيان، وقد لقيت اهتماماً بليغاً عند إمام مفسري المغرب بلا منازع، فالبحت له هدفان اثنان:

الهدف الأول: دراسة الإدماج دراسة علمية في التحرير والتنوير.

والهدف الثاني: إبراز فن الإدماج في القرآن الكريم.

وقد قام البحث على ثلاثة جوانب أساسية، وهي: الجانب النظري، والجانب التحليلي، والجانب النقدي.

والذي يعني الباحث بالدرجة الأولى لفت الأنظار إلى هذا الفن المنسيّ عند عموم الباحثين في الدراسات القرآنية عموماً، والبلاغة القرآنية على وجه الخصوص، والله الأمر من قبل ومن بعد.

الكلمات المفتاحية:

(الإدماج - البيان القرآني - البلاغة القرآنية - تفسير التحرير والتنوير - مناهج المفسرين)

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله، وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

فإن البحث في القرآن العظيم منقبة شريفة، ومسلك قويم، ومتعة ذهنية رفيعة، ومنزلة عليّة أنيقة، تضمنت متعته نوادر، وأدمجت منزلته فرائد، حتى أطبقت معانيه الواضحات على مضامين ثانياً كلماته الباسمات، فبان من إشرافه نفس، وفاحت منه رائحة مسك.

وقد تتبعت تلکم الروائح الزكيات، أنوف علماء خبروا مراميه، فتعودوا منه ما لا يطيقون بعده البعد، ولا يستطيعون دونه القرب، فكانوا منارات الفهم، ومتون العلم، وهم يدركون أنهم عن إذن المولى نهضوا، وعن رضاه انطلقوا.

ولا يزال الباحثون ينقبون عن فرائده ونوادره، على توالي الأيام وتطاول الأزمان، وقد بزّ ابن عاشور رحمه الله تعالى المعاصرين فضلاً عن المتقدمين، في باب من أبواب البلاغة القرآنية، وصرح من صروح المعاني السياقية، ومشهد من مشاهد الفهم الدقيق، والعلم الأنيق، فحرّك قلمه صوب فن بلاغي، غفل عنه المتقدمون إلا ما شاء الله تعالى، وهي مزية لا تتحصل إلا لمن أَرَادَهُ اللهُ بخير.

وهذا الأسلوب البياني العظيم الذي سماه البلاغيون «الإدماج»، أولاه الطاهر بن عاشور عناية كبيرة، حيث كانت رعايته في الجانب التطبيقي الذي يستأهل معه الوقفة التحليلية النقدية، بما يحقق الغرض العلمي من هذا البحث، وهو الكشف عن نوع من المعاني قديم، عرفه النقاد العرب، وعالجته ألسن العرب الأقحاح، وهو وفير في كتاب الله تعالى بما يخدم أسلوباً من أساليب الإقناع الضمني للمتلقى، بما يقنع بواطن العقول قبل ظواهرها، وهو بالتالي يكشف قيمة نفسية نفيسة أتى عليها القرآن الكريم عند نزوله، وهو ما يفسر لنا ذلك السر الذي جعل العرب تخر راکعة في لحظة زمانية حاسمة، استمرت بعدها على دين الله تعالى، بما يجمع بين تسليم الظاهر وإقناع الباطن، وهو منهج في الدعوة لم يقف على دراسته الباحثون الجادون إلا بكتابات

يسيرة، تتسم باليسر والسهولة، بالإضافة إلى سرعة الإنجاز، ووفرة الإنتاج.
ويكمن هدف البحث في إبراز جهد ابن عاشور رحمه الله تعالى في تعاطيه مع أسلوب
الإدماج، بما يحقق رغبة جموحة عند الباحث في إبراز هذا اللون على ساحة الاهتمام،
لتنصب الدراسات العلمية الجادة، في المجال العقدي والنفسي والاجتماعي والدعوي،
فيحقق غاية علمية فكرية، يكون لها نصيب من الجهد والفكر والعمل، وقد جاء البحث
في مقدمة ومباحث ثلاثة وخاتمة، والمباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: تعريف الإدماج، وهو في مطالب أربعة.

المبحث الثاني: أغراض الإدماج، وهو في سبعة مطالب.

المبحث الثالث: الجانب النقدي، وفيه مجموعة من الأمثلة التي تبين المقصود.

والله أسأل أن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب
سليم.

المبحث الأول

تعريف الإدماج

سأتناول تعريف الإدماج لغةً واصطلاحاً، وتاريخ المصطلح في كتب القوم، وما مرَّ
به من تطورٍ في لفظه إلى استقراره، ثم بيان التعريف المنضبط الذي يتناسب مع علوِّ
درجة القرآن وارتفاع رتبته.

المطلب الأول: تعريف الإدماج لغة

يُعدُّ المفهوم اللغوي الأساس الرصين للمعنى الاصطلاحي، فوشائج القرابة بيّنة
واضحة، بل إن بيان خيوط التواصل بينهما من صلة الرحم العلمي الذي يؤجر
عليه الباحث، لما في ذلك من توثيق الصلة بين المعاني؛ لتقوية الرابطة المعرفية بين لغة
العرب، ولغة العلم، وهذا ما يثبت لنا مدى أصالة العلم الشرعي عموماً، والعلم القرآني
خصوصاً، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بالبيان القرآني؟ فالأمر يزداد بهاءً وجمالاً،

وسنقف مع طائفة من أقوال اللغويين، في أصول المعاجم التي تحدثت عن مادة «دمج»، ثم نبني على ما قالوا من معانٍ.

ونبدأ بالفراهيدي - رحمه الله تعالى - حيث يقول: «دمجت الأرنب تدمج في عدوها، وهو سرعة تقارب القوائم، ومتن مدمج، وأعضاء مدمجة، كأنها أدرجت وملست كما تدمج المشطة مشطة المرأة إذا ضفرت ذوائبها، وكل ضفيرة منها على حيالها تسمى دمجاً واحداً، ويقال: دمج في بيته، أي: دخل، والدموج الدخول»^(١).

وجاء في تهذيب اللغة: «قال أبو عمرو^(٢): ليلة دامجة، وليل دامج أي: مظلم، وقال الأصمعي: تدامج القوم على فلان تدامجاً، إذا تضافروا عليه، وصلاح دماج أي: محكم، وقال ذو الرمة:

وإذا نحن أسباب المودة بيننا دماج قواها لم يخنها وصولها^(٣)

وأدمج في الشيء إدماجاً، واندماج فيه اندماجاً إذا دخل فيه»^(٤).

ويقول الجوهري: «دمج الشيء دموجاً، إذا دخل في الشيء واستحكم فيه، وكذلك اندمج وأدمج بتشديد الدال، قال أبو عبيد: كل هذا إذا دخل في الشيء واستتر فيه، ونصل مندمج، أي: مدور، وتدامجوا عليه، أي: تعاونا، وليل دامج، أي: مظلم»^(٥).

(١) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج ٦ ص ٩٠.

(٢) يقول ابن خلكان في الوفيات في ترجمة أبي عمرو: «إسحاق بن مرار الشيباني النحوي اللغوي: هو من رمادة الكوفة ونزل إلى بغداد، وهو من الموالي، وجاور شيبان للتأديب فيها فنسب إليها، وكان من الأئمة الأعلام في فنونه، وهي: اللغة والشعر، وكان كثير الحديث كثير السماع، ثقة، توفي سنة ست ومائتين، وعمره مائة وعشر سنين رحمه الله تعالى»، بتصريف، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة ١، ج ١ ص ٢٠١، وأظن أن هذا النص قد نقله الأزهرى عن كتاب اللغات، فلم أعره عليه في كتاب النوادير المعروف بالجم لأبي عمرو، وكتاب اللغات غير مطبوع.

(٣) ذو الرمة، غيلان بن عقبة بن مسعود، ديوان ذي الرمة، دار الكتب العلمية، شرح وتحقيق: أحمد حسن بسبح، بيروت - لبنان، ط ١، ٤١٥-٥١٩٩٥م، ص ٢٤٢.

(٤) الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠١م، ج ١٠ ص ٣٥٩.

(٥) الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة

ويؤصل ابن فارس لهذا الجذر بقوله: «الدال والميم والجيم أصل واحد يدل على الانطواء والستر، يقال: أدمجت الحبل، إذا أدرجته وأحكمت فتله»^(١).

أما الزمخشري: فنستطيع أن نقف معه لنرى مجاز هذا اللفظ عنده، حيث يقول: «ومن المجاز: دمج أمرهم: صلح والتأم، وصلح دماج ودماج: محكم، وقال ذو الرمة:

وإذا نحن أسباب المودة بيننا دماج قواها لم يخنها وصولها

أي: مدمجة، ودامجتك على هذا الأمر: وافقتك عليه، وتدامجوا عليه: توافقوا، وتدامج القوم عليّ: تألبوا.

ووجد البرد فتمدج في ثيابه: تلفف، وليل دماج: دامس ملتفّ الظلام قد دمج بعضه في بعض، وأدمج كلامه: أتى به متراصف النظم، واندماج الفرس: انطوى بطنه وضمّر»^(٢).

ونستطيع أن نلخص المعاني اللغوية الواردة في الكلام المتقدم بما يأتي: الإدماج هو الإدخال، وإن كان الإدماج يفترق عن الإدخال، بأن الإدماج إدخال شديد مستحکم فيه ستر وتغطية، بحيث يخفى على الناظر؛ كأن المدمج والمدمج فيه شيء واحد لا يفترقان.

فالإدماج مفهوم استقر في ذهنية العربي على إدخال شيء في شيء بإحكام، بحيث يصبحان شيئاً واحداً، يستتر الشيء المدمج في المدمج فيه بحيث يخفى على الناظر لأول وهلة، وعليه نستطيع أن نطبق هذا الكلام في المعاني، فنقول: الإدماج هو إدخال معنى في معنى بإحكام نظم، بحيث يلحق الثاني بالأول كأنه هو.

الرابعة، ١٩٩٠م، ج٢ ص٣٨٨.

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج٢ ص٢٤٤.

(٢) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ص١٣٥.

المطلب الثاني: تعريف الإدماج اصطلاحاً:

مر مصطلح الإدماج بعدة أسماء قبل دخوله عنق زجاجة مدرسة السكاكي^(١) واستقراره فيها، فقد ذكره أبو هلال تحت اسم المضاعفة فقال: «في المضاعفة: وهو أن يتضمّن الكلام معنيين، معنىً مصرّح به، ومعنى كالمشار إليه، وذلك المضاعفة مثل قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾» (يونس: ٤٣-٤٤)، فالمعنى المصرّح به في هذا الكلام: أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات، وصمّ عن الكلم البينات، بمعنى أنه صرف قلبه عنها، فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها، والمعنى المشار إليه: أنه فضّل السمع على البصر؛ لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل، ومع العمى فقدان النظر فقط^(٢)، وسر تسمية هذا الأسلوب بالمضاعفة عند العسكري: أن المعنى الأصيل الذي سيق له الكلام أصالةً تضاعف إلى معنى فرعي مُضمّن، فكان ذلك كالتضعيف.

ثم جاء ابن رشيق فسماه باسمه المتعارف عليه، ولعله أول من دونه من أصحاب الكتب النقدية - فيما اطلعت عليه - وعده من باب الاستطراد فقال: «ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج ... ثم قال: وهذا النوع أقل في الكلام من الاستطراد المتعارف وأغرب»^(٣).

أما أسامة ابن^(٤) منقذ: فقد ذكره تحت باب التعليق والإدماج وقال: «اعلم أن صيغة ذلك هو أن تعلق مدحاً بمدح أو هجواً بهجو، ومعنى بمعنى؛ كما قال المتنبي:

(١) على أن السكاكي نفسه لم يذكر في كتابه مفتاح العلوم مصطلح الإدماج، ولم يعرض له من قريب أو من بعيد، وأول من وقف عليه من هذه المدرسة هو: الخطيب القزويني، كما سيأتي لاحقاً.

(٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ١٩٦٩هـ، ج ١ ص ٤٢٣.

(٣) ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ٥، ١٩٨١هـ - ١٩٨١م، ج ٢ ص ٤١.

(٤) وضعت ألفاً قبل ابن لأن منقذ ليس اسم أبيه وإنما هو اسم أحد أجداده.

إلى كم تردُّ الرسلَ عما أتوا له كأنهم فيما وهبت ملاماً^(١)

أدمج رد الرسل برد الملام في الجود، فكلاهما مديح وقوله أيضاً:

حسنٌ في عيون أعدائه أقبحُ من ضيفه رآته السوامُ^(٢)

أدمج الحسن في القبح وكلاهما مدح، ووصفه بالكرم لأن إبله إذا رأت ضيفه علمت أنه سينحرها... ثم قال: وعلامة هذا الباب أن يكون أحد المعنيين تلويحاً والآخر تصريحاً^(٣)، ويتضح لنا أن ابن منقذ أفاد مما ذكره أبو هلال في الصناعتين، ولذلك نجد متابعة له فيما ذكر، من حيث يكون الأول تصريحاً والثاني تلويحاً.

وقال ابن أبي الأصبع: «وهو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني؛ ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه»^(٤)، والملاحظ أن ابن أبي الأصبع أضاف قيداً وهو إيهام المتكلم السامع أنه لم يقصد إدماج غرض في غرض، وإنما جاء في كلامه عرضاً، وتابعه عليه النويري بلفظه^(٥).

وقال الطيبي: «وهو أن يضمن كلاماً سيق لوصف وصفاً آخر، وهو أخص من الأول، وأعم من الثاني»^(٦).

(١) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٣٩١.

(٢) المتنبي، ديوان المتنبي، ص ١٦٥.

(٣) ابن منقذ، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي، البديع في نقد الشعر، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي والدكتور حامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ٥٨.

(٤) ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ابن أبي الأصبع العدواني، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص ٤٤٩.

(٥) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ج ٧ ص ١٣٦.

(٦) الطيبي، شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله، التبيان في البيان، تحقيق: د. توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت - الكويت، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى، ص ٣٢٢.

أما الخطيب القزويني في الإيضاح: فقد وضع تعريفاً وجد قبولاً لدى الشراح فقال: «وهو أن يضمن كلاماً سيق لمعنى معنى آخر»^(١)، وتابعه عليه السعد في المختصر^(٢) والمطول^(٣)، والسبكي^(٤)، والمغربي^(٥)، مع ملاحظة أن السكاكي لم يشر إليه في مفتاحه، فتكون الإضافة من قبل الخطيب على المفتاح، وهي ضمن تلخيصه عليه.

وهذا ما يكشف لنا النقاب في سبب من أسباب متابعة الشراح لتلخيص المفتاح، فقد كان الخطيب محققاً مدققاً متنبهاً لفرائد فانت السكاكي رحمهم الله جميعاً، وهذه بعض تعريفات لمن كتب في التعريفات والحدود:

قال الجرجاني: «الإدماج في اللغة: اللف، وإدخال الشيء بالشيء، يقال: أدمج الشيء في الثوب إذا لفه فيه، وفي الاصطلاح: أن يتضمن كلام سيق لمعنى - مدحاً كان أو غيره - معنى آخر، وهو أعم من الاستتباع^(٦): لشموله المدح وغيره، واختصاص الاستتباع بالمدح»^(٧).

(١) القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م، ص ٣٤٨.

(٢) التفتازاني: سعد الدين بن مسعود بن عمر، المختصر، طبعة مصورة دار السرور، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ضمن شروح التلخيص، ج ٤ ص ٣٩٨.

(٣) التفتازاني: سعد الدين بن مسعود بن عمر، المطول، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٣٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ٦٨٤.

(٤) السبكي، بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، طبعة مصورة دار السرور، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ضمن شروح التلخيص، ج ٤ ص ٣٩٨.

(٥) المغربي، ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، طبعة مصورة دار السرور، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ضمن شروح التلخيص، ج ٤ ص ٣٩٨.

(٦) عرفه السكاكي بقوله: «وهو المدح بشيء على وجه يستتبع مدحاً آخر»، يُنظر: السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٤٢٨، فالاستتباع خاص بالمدح، والغريب أن السكاكي بين هنا أن الاستتباع يكون خاصاً بالمدح، لكنه لم يُعرج على الإدماج بشيء، وهذا ما دعا الخطيب أن يستتبع على السكاكي بإدماجه الإدماج بعد الاستتباع، وهو مما يُمدح عليه استتباعاً.

(٧) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٥هـ، ص ٣٠.

وقال ابن حجة الحموي: «هو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني؛ ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصده»^(١).

وقال المناوي: «الإدماج لغة: إيهام الكلام، يقال: أدمج كلامه أبهمه، وعرفاً: تضمين كلام سيق لمعنى - مدحاً أو غيره - معنى آخر، وهو أعم من الاستتباع؛ لشموله المدح وغيره بخلافه»^(٢).

وقال أبو البقاء: «الإدماج هو في البديع أن يدمج المتكلم غرضاً في غرض، أو بديعاً في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحدهما كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ (القصص: ٧٠) فإن الغرض تفرده سبحانه بوصف الحمد فأدمج فيه الإشارة إلى البعث والجزاء، وهو أعم من الاستتباع؛ لشموله المدح وغيره، والاستتباع يختص بالمدح»^(٣).

فهذه التعريفات للإدماج جاءت متتابعة لما كتب القزويني في إيضاح تلخيصه، وجلها يدور حول إدخال معنى في معنى، بحيث يكون أحدهما أصيلاً، والثاني رديفاً، هذا ما استقر عليه الأمر عند علماء البيان والبديع في تعريف الإدماج، وهو ما استقر عليه الأمر عند المتأخرين^(٤) كذلك.

المطلب الثالث: نظرة ناقدة في تعريف الإدماج:

وحرى بنا أن نقف وقفة مع هذا المصطلح، وخصوصاً أن دراستنا قامت على

(١) الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٧م، تحقيق: عصام شعيتو، ج ٢ ص ٤٨٤.

(٢) المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت - لبنان، دمشق - سوريا، ط ١، ١٤١٠هـ، ص ٤٦.

(٣) الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٨٢.

(٤) يُنظر على سبيل المثال: الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ج ١ ص ٤٤٥.

الدرس القرآني، فنحن ندرس هذا المصطلح من حيث وظيفته البيانية السياقية في كشف النقاب عن وجه المعاني القرآنية، ليعيننا في تلمس معنى المعنى، وما لا يظهر إلا بطول تأمل وتدبر، فالذي يعيننا أولاً وآخرًا: الإفادة من هذا المصطلح؛ ليكون عوناً للمفسر في الوقوف على مراد الله تعالى من كلامه المنزل، وهذا غاية ما يريه المفسرون في تحقيقاتهم العلمية؛ ولذا كان لزاماً علينا أن ننظر في هذا المصطلح من زاوية البيان القرآني، والضابط السياقي الذي يقود إلى الوجوه الراجعة من التأويل والبيان والتفسير.

ولما كان تعريف أهل البديع للإدماج بأنه: «تضمين كلام سيق لمعنى معنى آخر»، كان من اللازم العلمي إعطاؤه ضابطاً مرتبطاً بعلم التفسير؛ لأن تعريفهم قام على الدرس الأدبي النقدي للشعر العربي، ونحن درسنا قام على الدرس البياني للقرآن المعجز، ولما افتقرت النظرة في أساسها ومضمونها، وجب ذلك الافتراق في ماهية المصطلح ومضمونه، ومن يدقق النظر في تلك التعريفات يخلص إلى نتيجة مفادها: أن المعاني التي تُساق في الكلام نوعان:

النوع الأول: معانٍ أصيلة الذكر، مقصودة المعنى، جاءت لإثبات حقيقة من الحقائق الكلية أو الفرعية، مقصودة في أصل السياق، وهذا أغلب ما يدور عليه الكلام.

النوع الثاني: معانٍ فرعية، جاءت لتقوي المعاني الأصيلة، أو تزيدها بياناً، أو لتضيف حقيقة غير مقصودة في أصل سياق الكلام.

والنوع الثاني: هو ما يصدق عليه مصطلح الإدماج عند البيانين، وهو تضمين الكلام الذي سيق لمعنى - وهو المعنى الأصلي - معنى آخر - وهو المعنى الفرعي أي: الإدماج -.

أقول: إن المعاني بنوعها الأصلي والفرعي - إن صح التعبير -، موجودة في كتاب الله تعالى، وعلينا أن نلاحظ أمرين دقيقين سنلمسهما في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى وهما:

الأول: أن المعاني المدمجة تصبح أصيلة في سياقها، منسجمة في نظمها، متلائمة مع

المعاني المدمجة فيها بحيث تصبح هي هي، ولا يُستغنى عن وجودها في تدعيم المعنى الأساس.

الثاني: تحقيق غرض بياني مقصود لذاته، يتولد عنه مقصد من مقاصد القرآن^(١).

وبهذين الملحظين يفترق الإدماج في الدراسة القرآنية عنه في الدراسة الأدبية؛ ولذا لا يصح أن نفسر آيات القرآن على ضوء مفهوم الإدماج دون ملاحظة هذه الفروق؛ لأنه لا يوجد في كتاب الله تعالى معانٍ فرعيةً بذاتها ألبتة، بل هي أصيلة في مضمونها، وفي سياقها، وفي أهدافها وأبعادها، والتطبيق الجائر^(٢) لعلوم البلاغة - وخصوصاً علم البديع - على كتاب الله لهو من تضييع الحقوق، وجلب الهموم، ودفع المنافع الماتعة، ولذا وجب لحاظ الفروق والعمل بمقتضاها.

ويقتضينا المقام أن نعرف الإدماج القرآني، بالإفادة من كلام المتقدمين، وبإضافة علمية تناسب الحديث عن إعجاز القرآن الخالد، فنقول في تعريفه: «تضمن المعاني القرآنية التي سيقّت لمقصد معنوي رديفاً يحقق مقصوداً آخر، يتلاءم مع المعاني الأصلية بحيث يصبح من جنسها».

المطلب الرابع: موقع الإدماج عند ابن عاشور:

حاول ابن عاشور رحمه الله تعالى أن يعطي لمساته في توجيه المعنى البياني لمصطلح الإدماج فقال: «وهذا الإدماج من أفانين البلاغة، أن يكون مراد البليغ غرضين فيقرن الغرض المسوق له الكلام بالغرض الثاني، وفيه تظهر مقدرة البليغ، إذ يأتي بذلك الاقتران بدون خروج عن غرضه المسوق له الكلام ولا تكلف، قال الحارث بن

(١) فالمراد يتعامل مع الآلة البلاغية على أنها موصلة إلى فهم الهداية، المستخلصة من ذلك الكتاب المنزل بلسان عربي مبين.

(٢) أقصد بالتطبيق الجائر: تفسير الآيات القرآنية على ضوء بعض المصطلحات البيانية، دون ملاحظة الفروق بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر، فما جاز أن يطبق على كلام آحاد البشر لا يصح في كتاب الله تعالى، فهو ليس شعراً ولا نثراً، لتطبيق عليه تلك المقاييس والمنهجيات التي فهمها واستنبطها أئمة النقد العربي من كلام الشعراء والخطباء، فيجب على من يفسر كتاب الله تعالى أن تكون بين جنبات قلبه، وأصداء عقله، تلك الفروق التي إدراكها يتميز المحقق المدقق من حاطب ليل.

حلزة^(١):

أذنتنا بينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء^(٢)

فإن قوله: «رب ثاوٍ» عند ذكر بُعد الحبيبة والتحسر منه، كناية عن أن ليست هي من هذا القبيل الذي يمل ثواؤه، وقد قضى بذلك حق إرضائها بأنه لا يحفل بإقامة غيرها^(٣).

فالذي تطرق له ابن عاشور هو موقع الإدماج في علوم البلاغة، ولم يقدم خصوصية تُذكر في الجانب القرآني، وهذا بلا شك يُعد مأخذاً من الناحية النظرية، والذي يغفر له أن عنايته كانت بالجانب التطبيقي لا النظري، ومع ذلك فكان من المناسب أن يطرق باب النقد، وأن يقدم لمسةً بيانيةً في بعدها القرآني، وقد رجعت لرسالته «موجز البلاغة» لأستزيد البيان بياناً فلم أظفر بشيء حول الإدماج.

ولا يخفى أن ابن عاشور يمثل اتجاهاً مستقلاً في طريقة عرضه للمسائل البيانية، وهو كذلك صاحب مدرسة في إحياء بعض المصطلحات البيانية وتناوله لها، والإدماج من تلك المصطلحات التي ركّز نظره تجاهها، وهو مصطلح مرقوم في علم البديع عند أهل البديع، وإن كان رحمه الله تعالى لم يرتض ذلك بل أثار أن يكون في علم المعاني، إما في باب الإطناب، أو تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وفي ذلك يقول: «وقد عدّ الإدماج من المحسنات البديعية، وهو جدير بأن يعد في الأبواب البلاغية في مبحث

(١) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي، شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات، كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند، الملك بالحيرة، ومطلعها: (أذنتنا بينها أسماء) جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم، يُنظر: الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) تخريج البيت: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ٢، ج ١١ ص ٤٣، وقد ذكره إميل يعقوب في الديوان الذي جمع فيه أشعار الحارث بن حلزة، يُنظر: يعقوب، إميل بديع، ديوان الحارث بن حلزة، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ص ١٩٩.

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١ ص ٣٣٤.

الإطناب، أو تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر»^(١).

وهذا ما يكشف لنا سبب عدم متابعة ابن عاشور المتقدمين في عد آية واحدة من الإدماج، وذلك لسببين اثنين، أما أحدهما: فلقلة ذكر المفسرين لهذا اللون من البلاغة، وأما الثاني: فلاستقلال نظرة ابن عاشور وعده الإدماج إطناباً، وفي التطبيق العملي نجد أنه يميل إلى جعل الإدماج من باب الإطناب؛ وذلك لتحقيق غرض من الأغراض البيانية، فعند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثَقَلَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

يقول ابن عاشور: «ووصفت النفس بواحدة على أسلوب الإدماج بين العبرة والموعظة؛ لأن كونها واحدة أدهى للاعتبار، إذ ينسل من الواحدة أبناء كثيرون، حتى ربما صارت النفس الواحدة قبيلة أو أمة، ففي هذا الوصف تذكير بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم، حيث بثه من نفس واحدة رجالاً كثيراً ونساءً»^(٢)، وبه تظهر وجهة نظر ابن عاشور في عده الإدماج من قبيل الإطناب، ومما يزيد وضوح هذا الأمر قوله: «ووصف الحمل بـ ﴿خَفِيئاً﴾ إدماج ثان، وهو حكاية للواقع، فإن الحمل في مبدئه لا تجد منه الحامل ألماً»^(٣)، ويقول: «فمعنى ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ لم تتفطن له، ولم تفكر في شأنه، وكل هذا حكاية للواقع، وهو إدماج»^(٤).

فالواقع يقتضي معرفة هذه المذكورات في الآية، وذكر القرآن لها مع أنها معلومة للمخاطب لهو من قبيل الإدماج تذكيراً للتالي، وليزيد المعنى ثراءً وحسن موقع، وهذا يزيدنا بياناً أن ابن عاشور نظر للإدماج على أنه أسلوب إطناب، لا على أنه شكل من أشكال التحسين المعنوي للنص القرآني كما نظر إليه أهل البديع، وبلا شك أن

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١ ص ٣٣٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨ ص ٣٨٤.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨ ص ٣٨٥.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨ ص ٣٨٥.

عدَّ الإدماج إطناباً هو إطناب في الحسن والبيان؛ لما يترتب على ذلك من الكشف عن الأغراض المعنوية التي يريدها النص القرآني، وهو ما سنعرضه في المبحث التالي.

المبحث الثاني

أغراض الإدماج

لما نظر ابن عاشور للإدماج على أنه لون من الإطناب، لزم من ذلك أن يكون وراء هذا الإطناب غرض بياني، وذلك عائد بطبيعة الحال إلى طبيعة الموضوع الذي تتكلم عنه الآية، وطبيعة السياق الذي وقع فيه الإدماج، فتعدد الأغراض البيانية عائد إلى تعدد الموضوعات القرآنية، وبالتالي تعدد السياقات القرآنية، ومن خلال ذلك نستطيع أن نسجل مجموعة من الأغراض البيانية للإدماج، وقبل ذلك علينا أن نستحضر مسألتين منهجيتين، تجب ملاحظتهما في التعامل مع أسلوب الإدماج، وهما:

المسألة الأولى: عند تعدد الآراء في بيان آية، يصح أن يكون الإدماج على بعض الآراء دون جميعها، فمن ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۗ﴾ (٧١) ثم نُجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ (مريم: ٧١-٧٢)، حيث يقول ابن عاشور: «وجملة: ﴿ثُمَّ نُجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنهم خالدون في العذاب، فليس ورودهم النار بموقت بأجل، و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الرتبي، تنويهاً بإنجاء الذين اتقوا، وتشويهاً بحال الذين يبقون في جهنم جثياً، فالمعنى: وعلاوة على ذلك ننجي الذين اتقوا من ورود جهنم، وليس المعنى: ثم ينجي المتقين من بينهم، بل المعنى أنهم نجوا من الورود إلى النار، وذكر إنجاء المتقين، أي: المؤمنين، إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين، وجملة ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ عطف على جملة ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، والظالمون: المشركون»^(١).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٦ ص ٧٠.

القول بالإدماج فرع عن القول بأن النجاة هي من الورود، وقد اختلف المفسرون في الورود على أقوال: فمنهم: من قال: معناه الدخول، ومنهم: من قال: معناه المرور على الصراط، ومنهم: من قال: الإشراف على النار، ومنهم: من قال: ما يناله المؤمن من الحمى في الدنيا^(١). وإن كان لي من قول في توجيه هذه المسألة، فأقول:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ محمول على معنى الاستثناء، لا على لفظه وأسلوبه^(٢)، فقد أخبرت الآية أن جميع الناس سيردون النار لدخولها، فمآل الورود دخول النار، ثم أخبر تعالى بأنه سينجي الذين اتقوا، ولم يقيد خبر الإنجاء أمن النار أو من ورودها، والمعنى الثاني هو الراجح؛ لأن الله تعالى جعل النار لغير المؤمنين، فيكون معنى الآية أن الله سيدخل النار جميع الناس إلا الذين اتقوا فسينجيهم من هذا الورود فلا يدخلون النار، فالأصل أن جميع الناس مؤمنهم وفاجرهم سيدخلون النار، لكن رحمة الله تعالى ستقي الذين اتقوا من ورودها، وهو ما يتناسب ويتوافق مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُسْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾، وهذا معنى الإنجاء من الورود، حيث لن يسمعوا حسيسها^(٣)؛ لأنهم مبعدون عنها برحمة الله تعالى وفضله ومنه.

ولا تعارض بين هذا التوجيه والقول: بأن معنى الورود الدخول، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين وعلى رأسهم: حبر الأمة رضي الله عنه، وذلك أن منتهى الورود دخول النار، فأطلق الورود الذي هو طريق النار، وأراد مآله وهو الدخول، ودخولها

(١) الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٣ ص ٤٧٨ بتصرف.

(٢) لم يقل: إلا الذين اتقوا لبيان عظيم رحمته تعالى بعباده، وأن الله أنجاهم قبل ورودها، وزيادة تبشيع وتشنيع للظالمين، على جعل ﴿ثم﴾ على التراخي الرتبي.

(٣) قال أبو بكر الأنباري في معنى حسيس النار: صوتها، وقال الراغب: حركتها، وهما من مصب واحد، فأثر الحركة هو الصوت، يُنظر، الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ط (١)، ج ١ ص ٢٠٤، والراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق - سوريا، ج ١ ص ٢٣٠.

لن يكون للمتقين لأن الله سينجيهم بواسع رحمته من ورودها، فكيف دخولها؟ يقول مكي رحمه الله تعالى: «أي: ننجيهم من ورودها فلا يردونها»^(١)، ويظهر معنى الإدماج جلياً على هذا التوجيه، أما على الأقوال الأخرى فلا.

وكذلك عند قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥)، قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ إدماج للوعيد بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة»^(٢).

وهذا المعنى الذي يؤخذ على أنه إشارة نصية من فعل الإهلاك هو الإدماج، فالآية تلوح بعصا التهديد لأولئك المعرضين المناوئين، فأدمج تهديداً ووعيداً بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة، وهذا اللون من الإدماج فيه من دقة المسلك ما لا يخفى.

هذا ويصح القول: بالإدماج على جعل الإهلاك إهلاك العذاب الدنيوي، لا إهلاك الطبع على القلوب، بحيث لا يرجعون إلى الإيمان والإسلام، فيموتون على الكفر ويبعثون على ذلك^(٣).

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنونه وعلومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط ١، ٤٢٩، ٢٠٠٨ م، ج ٧ ص ٥٧٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٧ ص ٤٣.

(٣) قلت: الصحيح: أن المقصود بالإهلاك إهلاك الطبع على القلوب؛ بحيث لا يرجعون إلى الإيمان، والرجوع إلى الدنيا بعد الإهلاك - بمعنى التعذيب - غير متصور في الذهن، وللطبري توجيه سياقي بديع في ترجيح أن الإهلاك إهلاك الطبع على القلوب، يقول رحمه الله تعالى: «والقول الذي قاله عكرمة في ذلك أولى عندي بالصواب، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن تفريق الناس دينهم الذي بُعث به إليهم الرسل، ثم أخبر عن صنيعه بمن عم بما دعت إليه رسله من الإيمان به، والعمل بطاعته، ثم أتبع ذلك قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، فلأن يكون ذلك خبراً عن صنيعه بمن أبى إجابة رسله وعمل بمعصيته، وكفر به أخرى؛ ليكون بياناً عن حال القرية الأخرى التي لم تعمل الصالحات وكفرت به.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: حرام على أهل قرية أهلكتناهم بطبعنا على قلوبهم، وختمنا على أسماعهم وأبصارهم، إذ صدوا عن سبيلنا وكفروا بآياتنا، أن يتوبوا ويراجعوا الإيمان بنا واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا». الطبري، جامع البيان، ج ١٨ ص ٥٢٥-٥٢٦.

وهذا ما رجحه الزمخشري حيث قال: «ومعنى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: عزمنا على إهلاكها، أو قدرنا إهلاكها،

المسألة الثانية: إظهار المعاني الكامنة قبل الجملة المدمجة وبعدها، فتكون جملة الإدماج في حقيقتها همزة وصل، وتطرية ذهن، وكشف خبيء؛ فعند قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مِبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩) يقول رحمه الله: «عقب الإمعان في تهديد المشركين وتجهيلهم على إعراضهم عن التدبر بحكمة الجزاء ويوم الحساب عليه والاحتجاج عليهم، أعرض الله عن خطابهم ووجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالثناء على الكتاب المنزل عليه، وكان هذا القرآن قد بين لهم ما فيه لهم مقنع، وحجاجاً هو لشبهاتهم مقلع، وأنه إن حرم المشركون أنفسهم من الانتفاع به فقد انتفع به أولو الألباب وهم المؤمنون، وفي ذلك إدماج الاعتزاز بهذا الكتاب لمن أنزل عليه، ولمن تمسك به، واهتدى بهديه من المؤمنین.. والجملة استئناف معترض، وفي هذا الاستئناف نظر إلى قوله في أول السورة: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص: ١) إعادة للتنويه بشأن القرآن كما سيعاد ذلك في قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ (ص: ٤٩)»^(١).

فجملة الاستئناف التي أدمجت هنا كان لها غرض بيان الاعتزاز بالقرآن من حيث معناها الذاتي، وهي كذلك جاءت لبيان مناسبة بين السابق واللاحق، فوجه بركة القرآن أنه ذكر للناس، وهذا ما أشارت إليه السورة من مطلعها وفي ثناياها كذلك. بعد بيان هاتين المسألتين نشرع في تعداد الأغراض القرآنية لأسلوب الإدماج، وهي على النحو الآتي:

ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: أن قوماً عزم الله على إهلاكهم، غير متصور أن يرجعوا وينبوا إلى أن تقوم القيامة؛ فحينئذ يرجعون ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٧) يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم، فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب، ينظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج ٣ ص ١٣٥.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٣ ص ١٤٨.

المطلب الأول: الأغراض النفسية والتربوية:

بيان الغرض النفسي من مقاصد القرآن في الكشف عن بواطن النفوس، لتوليد القناعة الداخلية في نفسية المتلقي للنص القرآني، أو لتمهيد الطريق في سبيل التطبيق العملي للأوامر الشرعية، وحسن أن يكون بيان الأغراض النفسية في القرآن على سبيل الإدماج؛ لما فيها من تدعيم الغرض النفسي بأسلوب ضمني، وشأن النفوس حب التلويح لا التصريح، وهذا منهج القرآن في التعامل مع النفس البشرية، فهو أدعى للتقبل والنزول على مقتضيات الخطاب، فعند قوله تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥) يقول ابن عاشور: «والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم، وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم»^(١)، وهو إدماج امتنان على المؤمنين في الإخبار عن أهل الكتاب والمشركين، وقد نطق بمعنى الإدماج دون النطق بحروفه شيخ المفسرين فقال: «والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له، واختصاصه إياهم بها، أفرادهم بها دون غيرهم من خلقه»^(٢).

فقوله رحمه الله: «فيفضل بالإيمان على من أحب» أي يمتن عليهم بالإيمان والرحمة، وقد أدمج ذكره في الإخبار عن أهل الكتاب، فالغرض الأساس من السياق بيان موقف أهل الكتاب والمشركين من نزول الرسالة على النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء ذكر اختصاص الله تعالى بعض عباده بالرحمة؛ للامتنان على المؤمنين ضمن هذا السياق على سبيل الإدماج.

أقول: وفي الآية إدماج آخر، فقوله تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١ ص ٦٣٥.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ٢ ص ٤٧١.

الْكِتَابِ ﴿ فِيهِ أَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ كَفَرُوا وَهُوَ إِدْمَاجٌ؛ لِأَنَّ الْغُرُضَ الْأَسَاسَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ مَوْقِفِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ نَزُولِ الرِّسَالَةِ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ مَا يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مَا يَؤُدُّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكُونَ، مَعَ أَنَّهَا أَوْجَزُ لَفْظًا، قَصِدَ بِذَلِكَ بَيَانَ كُفْرِ الصَّنْفَيْنِ الَّذِينَ لَا يَؤُدُّانِ إِنْزَالَ الْخَيْرِ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَفَائِدَةُ هَذَا الْإِدْمَاجِ بَيَانُ وَضُوحِ كُفْرِ أَوْلَئِكَ بِمَكَانٍ، لَا يُقْبَلُ مَعَهُ فِي شَأْنِهِمْ جِدَالٌ، وَهُوَ إِطْنَابٌ كَمَا لَا يَخْفَى^(١).

وَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا بِهِآ إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٢)، نَجِدُ أَنَّ ابْنَ عَاشُورَ يَصْرَحُ بِمَقْصِدِ الْآيَةِ فِي تَذْكِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِوَصِيَّةِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ لِتَرْبِيتِهِمْ عَلَى أُسْوَاسِ تِلْكَ الْوَصِيَّةِ الَّتِي جَامَعَهَا التَّوْحِيدُ وَعِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ: «وَعَطَفَ يَعْقُوبَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ هُنَا إِدْمَاجٌ مَقْصُودٌ بِهِ تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ - الَّذِي هُوَ يَعْقُوبُ - بِوَصِيَّةِ جَدِّهِمْ، فَكَمَا عَرَّضَ بِالْمُشْرِكِينَ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ دِينِ أَوْصَى بِهِ أَبُوهُمْ، عَرَّضَ بِالْيَهُودِ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا انْتَسَبُوا إِلَى إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ - الَّذِي هُوَ جَامِعُ نَسَبِهِمْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؛ لِتَقَامِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِحَقِّ اتِّبَاعِهِمُ الْإِسْلَامَ»^(٢).

فَالْغُرُضُ مِنْ اخْتِصَاصِ ذِكْرِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غُرُضٌ تَرْبِوِيٌّ، وَهُوَ مَقْصِدُ الْإِدْمَاجِ، فَفِيهِ مِتَابَعَةُ الْابْنِ لِلْأَبِ فِي أُمُورِ الْخَيْرِ، فَكَمَا وَصَى إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ كَذَلِكَ صَنَعَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَعَ بَنِيهِ، فَحَرِيٌّ بِمَنْ يَدْعِي الْإِنْتِسَابَ إِلَى يَعْقُوبَ أَنْ يَتَابَعَهُ فِيمَا وَصَى بِهِ مِنْ كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَهَذَا الْمَقْصِدُ الَّذِي حَقَّقَهُ إِدْمَاجُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَ غَيْرِهِ، لَا يَتَأْتِي تَرْكِيزُهُ بِالْأَذْهَانِ، إِلَّا بِالنَّصِّ عَلَيْهِ وَالتَّصْرِيحِ بِهِ دُونَ التَّلْمِيحِ؛ لِأَنَّ بَنِي

(١) يَقُولُ ابْنُ عَاشُورَ فِي مَوْطِنِ آخِرِ فِي تَقْوِيَةِ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ الْإِدْمَاجِ: «وَذَكَرَ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إِدْمَاجًا لِلنِّدَاءِ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ الْكُفْرِ، وَلِهَذَا الْإِدْمَاجُ نَكْتَةٌ أَيْضًا، وَهِيَ أَنَّ وَصْفَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَنْزِلَةِ الْجِنْسِ صَارَ الْمَوْصُولُ فِي قُوَّةِ الْمَعْرِفِ بِلَامِ الْجِنْسِ، فَتَقْدِيرُ جُمْلَةٍ: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَصْرُ جِنْسِ الْكُفْرِ عَلَى هَذَا الضَّمِيرِ؛ لِقَصْدِ الْمُبَالَغَةِ؛ لِكَمَالِهِمْ فِي الْكُفْرِ بِصَدِّهِمُ الْمُعْتَمِرِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَصَدِّ الْهَدْيِ عَنْ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» ابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، ج ٢٦ ص ٥٨.

(٢) ابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ، ج ١ ص ٧٠٨.

إسرائيل اعتادوا التقلت دون الانقياد لإرشادات الوحي، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يقيم عليهم الحجة بينةً ظاهرةً، فهذه فائدة الإدماج في هذه الآية.

وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِقُونَ ﴿﴾ (المؤمنون: ١٠٩-١١١)، يقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ إدماج للتنويه بالصبر، والتنويه على أن سخريتهم بهم كانت سبباً في صبرهم الذي أكسبهم الجزاء، وفي ذلك زيادة تلهيف للمخاطبين بأن كانوا هم السبب في ضر أنفسهم ونفع من كانوا يعدونهم أعداءهم»^(١)، وهي فائدة في تربية المؤمنين على كظم الغيظ، وانتظار ما عند الله تعالى من جزيل الثواب، وفيها من تربية النفوس وتهذيبها على هذه الفضيلة ما يجعلها معينة على الإيمان وعمل الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ (الأحقاف: ٥١) فيه من تربية الآباء على الدعاء لأبنائهم، وأخذ العبرة في أن من أحسن إلى والديه في حاضر الأيام وسابقها، أحسن إليه أبنائه في حاضر الأيام ولأحقها، يقول ابن عاشور: «وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين، إيماء إلى أن المرء يلقي من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة»^(٢).

المطلب الثاني: الأغراض التشريعية:

عني القرآن ببيان الأغراض التشريعية، وذلك من خلال التعقيبات القرآنية تارة، والتصريح بمقصد التشريع تارة، وبالإدماج تارة أخرى، فعند قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨ ص ١٠٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦ ص ٢٩.

نَقَرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿البقرة: ٢٢٢﴾، بين ابن عاشور مقصد التشريع في هذه الآية، وأنه غير مقتصر على التطهر فحسب، بل تعداه إلى غاية عظيمة من غايات الطهارة الفقهية، وهي: التوبة، يقول رحمه الله: «وأما ذكر التوابين، فهو إدماج، للتنويه بشأن التوبة عند ذكر ما يدل على امتثال ما أمرهم الله به من اعتزال النساء في المحيض، أي: إن التوبة أعظم شأنًا من التطهر، أي: إن نية الامتثال أعظم من تحقق مصلحة التطهر لكم؛ لأن التوبة تطهر روحاني، والتطهر جثماني»^(١).

فالمعنى المدمج: التوبة، والمدمج فيه التطهر، والمدمج هو غاية المدمج فيه، وفائدته: ربط المعنى الذي سبقت له الآية - وهو التطهر - بأصل عظيم، وهو تخليص العبد من الذنوب، يقول أبو السعود: «وفي ذكر التوبة: إشعار بمساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه»^(٢)، وفي ذلك تنويه بمقصد تشريع التطهر للتوبة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، قام مقام العلة، فكان سائلاً سأل: لماذا أمر الله بما أمر؟ فكان الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، من باب الاستئناف البياني.

وكذلك نجده رحمه الله يبين الغرض الاجتماعي الأخلاقي من التشريع عند قوله تعالى: ﴿الْأَلْفُ مِائَتًا مِمَّا كَفَرَتْ أُنثَىٰ فَاصْبِرْ إِلَىٰ وَعْدِ اللَّهِ وَإِلَىٰ الْمَوْلَانِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وفي ذلك يقول: «والمقصود من هذه: الجملة إدماج الوصاية بالإحسان في حال المراجعة، وفي حال تركها، فإن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ إبطالاً لأفعال أهل الجاهلية»^(٣)، فلم يقل: فإمساك أو تسريح، بل عدل إلى تقييد هذه الجملة ليُدْمَج قصد الوصاية بالمعروف بالزوجة إمساكاً، وبالإحسان تركاً.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ٣٥١-٣٥٢.

(٢) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج ١ ص ٢٢٢.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ٢٨٦.

ويقول: «وقد ظهر من هذا أن المقصود من الجملة هو الإمساك أو التسريح المطلقين، وأما تقييد الإمساك بالمعروف، والتسريح بالإحسان، فهو إدماج لوصية أخرى في كلتا الحالتين، إدماجاً للإرشاد في أثناء التشريع»^(١).

ويدل هذا الإدماج على أن المقصود من التشريع ليس تقنين الروابط الأسرية، بقدر ما هو إضفاء الأخلاق السامية عليها، فكم من قانون ينظم الروابط الأسرية، بجفاف العاطفة، وقسوة التعامل، وهذا ما لا يريده القرآن، فأراد أن يعطينا صورة مشرقة للقانون الإسلامي في نزاع من تلك النزاعات الأسرية، وهنا تظهر بلاغة الإدماج، في أنه يؤصل لقانون تسابق فيه الأخلاق طبيعة التنظيم؛ ليكون النظام مرتكزاً على قاعدة أخلاقية لا مثيل لها في عالم القيم.

المطلب الثالث: التذكير بغرض الترهيب:

من تلك الأغراض التي يحتضنها أسلوب الإدماج، التذكير بغرض ترهيب المخاطب، إما بقصد الارتداع كما جاء عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبُ اللَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٦)، يقول ابن عاشور: «وإنما يكون ذلك في الآخرة، فذكر عذاب الدنيا هنا إدماج ... واعلم أن قوله: ﴿فَعَذَبُ اللَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قضية جزئية لا تقتضي استمرار العذابين؛ فأما عذاب الدنيا فهو يجري على نظام أحوال الدنيا، من شدة وضعف وعدم استمرار، فمعنى انتفاء الناصرين لهم منه؛ انتفاء الناصرين في المدة التي قدرها الله لتعذيبهم في الدنيا، وهذا متفاوت، وقد وجد اليهود ناصرين في بعض الأزمان مثل قصة أستير في الماضي، وقضية فلسطين في هذا العصر.

وأما عذاب الآخرة فهو مطلق هنا، ومقيد في آيات كثيرة بالتأبيد، كما قال: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]»^(٢).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ١١٠.

وقد ذهب المفسرون إلى أن المقصود بالعذاب الدنيوي القتل والسبي^(١)، ولم يصرح ابن عاشور رحمه الله بغرض الإدماج في الآية، وفي ظني أن الغرض يكمن في قلة إيمان أولئك القوم بالغيب، فأراد أن يجعل لهم عذاب الدنيا نقداً، وعذاب الآخرة نسيئةً، همزاً لمتن تغافلهم وجسد تناسيهم: لعلهم يرتدعون عن غيهم وكفرهم؛ لأن النفس إن علمت نزول العذاب بها في الآجل، سارعت إلى تجنب أسبابه، فكان ذكر عذاب الدنيا لأجل المسارعة في الارتداع.

وإما بقصد الوعظ والتنبيه على علة نزول العذاب، فعند قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١١٧)

يقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إدماج في خلال التمثيل، يكسب التمثيل تفضيلاً وتشويهاً، وليس جزءاً من الهيئة المشبه بها... والسامعون عالمون بأن عقاب الأقوام الذين ظلموا أنفسهم غاية في الشدة، فذكر وصفهم بظلم أنفسهم لتذكير السامعين بذلك على سبيل الموعظة»^(٢).

يقول الزمخشري: «فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم؛ لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ»^(٣)، وقد تابعه البيضاوي^(٤) وأبو السعود^(٥) والخطيب الشربيني^(٦) والأكوسي^(٧)،

(١) يُنظر: الطبري، جامع البيان، ج ٦ ص ٤٦٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ١٩٨.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ١ ص ٤٣٣.

(٤) يُنظر: البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت - لبنان، ج ٢ ص ٨٢.

(٥) يُنظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٢ ص ٧٥.

(٦) يُنظر: الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد، السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ج ١ ص ١٩٦.

(٧) يُنظر: الأكوسي، محمود الأكوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج ١ ص ١٧٥.

فهذا الوصف من باب الإدماج؛ لأن المقصود بالوصف هاهنا ليس بيان علة الإهلاك فحسب، بل زيادة على ذلك وهو جعل علة الإهلاك تذكيراً لما يؤول إليه الظالمون، فيحصل الاعتبار والاتعاظ حينئذ عند السامعين.

وبذلك يحصل قصد الإدماج وهو التذكير إما بقصد الارتداع وإما بقصد الوعظ والتنبيه، وهذا يدل على أن أغراض الإدماج عنيت بالمعنى وأبعاده الوعظية.

المطلب الرابع: استقصاء المعاني:

يرى ابن عاشور أن من أغراض الإدماج: استقصاء المعاني المتعلقة بمعنى معين، والاستقصاء إما أن يكون لغرض الرد على مزاعم باطلة كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢)، يقول ابن عاشور: «وعطف الملائكة على المسيح - مع أنه لم يتقدم ذكر مزاعم المشركين بأن الملائكة بنات الله حتى يتعرض لرد ذلك - إدماجٌ لقصد استقصاء كل من ادعت له بنوة الله؛ ليشمله الخبر بنفي استنكافه عن أن يكون عبداً لله، إذ قد تقدم قبله قوله: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وُلْدٌ﴾ (النساء: ١٧١)، وقد قالت العرب: إن الملائكة بنات الله من نساء الجن، ولأنه قد تقدم أيضاً قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (النساء: ١٧١) ومن أفضل ما في السماوات الملائكة، فذكروا هنا للدلالة على اعترافهم بالعبودية»^(١).

فالرد على النصارى بنفي استنكاف المسيح أن يكون عبداً لله تعالى، وعلى العرب بنفي استنكاف الملائكة أن يكونوا عبيداً لله تعالى، فغرض الإدماج استقصاء الرد على من أشرك في جانب البنوة، وهذا النظر من ابن عاشور لعله من أدق ما يتوجه لهذه الآية، وذهب ابن عطية إلى أن هذا «زيادة في الحجة وتقريب من الأذهان، أي: ولا هؤلاء

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٤ ص ٢٣٧.

الذين هم في أعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك فكيف سواهم؟^(١)، وهو مبني على اعتقاد أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وما قاله ابن عاشور أدق مسلماً؛ لأنه المقصود بالإدماج، وأمر المفاضلة معنى زائد مبني على خلاف بين الفرق الكلامية، لم تقصده الآية بعينه لا من قريب ولا من بعيد.

وإما أن يكون الاستقصاء لغرض التحذير كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٨).

قال ابن عاشور: «فصفة: ﴿ لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ تحذير للمشركين من التريث عن الإيمان خشية أن يبغتهم يوم ظهور الآيات، وهم المقصود من السياق، وصفة ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ إدماج في أثناء المقصود لتحذير المؤمنين من الإعراض عن الأعمال الصالحة»^(٢)، فمقصود الآية السياقي تحذير الكافرين وتهديدهم، وجاءت هذه الجملة: ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ إدماجاً مناسباً في سياق تهديد الكافرين، وفائدة هذا الإدماج تنبيه عصاة المؤمنين بأنهم ليسوا بمأمن عن العقوبة، فليحذروا وليسارعوا في التوبة وعمل الصالحات، وهو استقصاء لجميع أصناف الغافلين عن ذلك اليوم العظيم.

يقول ابن عطية: «يريد جميع أعمال البر فرضها ونفلها، وهذا الفصل هو للعصاة المؤمنين كما قوله: ﴿ لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ هو للكفار، والآية المشار إليها تقطع توبة الصنفين»^(٣)، ويقول ابن كثير: «أي: ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ط ١، ج ٢ ص ١٦٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٧ ص ١٤٠.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٢ ص ٤٣١.

عاملاً به قبل ذلك، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك»^(١).

المطلب الخامس: غرض التعليم أثناء الاستدلال:

ومن تلك الأغراض المباشرة في التحرير والتنوير: غرض التعليم أثناء الاستدلال، وهو أن يذكر السياق فائدة أثناء الاستدلال على أمر ما، ويكون ذلك لأغراض فرعية، فمنها:

١- التنويه بعصمة الوحي كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (الحجر: ١٧)، يقول ابن عاشور: «إدماج للتعليم في أثناء الاستدلال، وفيه التنويه بعصمة الوحي من أن يتطرقه الزيادة والنقص، بأن العوالم التي يصدر منها الوحي وينتقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة»^(٢).

فقد سيقت الآية في ثنانيا الاستدلال على قدرة الله تعالى على خلق النظام الكوني، وهذه الآية ناطقة بقدرة الله على حفظ النظام الشرعي، فأيرأدها في سياق الآيات المتحدثة عن القدرة للاستدلال على البعث والمعاد، إدماجٌ قُصد به تعليم المخاطبين بأن الله سبحانه قد حفظ وحيه من أي زيادة أو نقصان، وفائدة الإدماج تكمن في أن هذا الوحي معصوم من الله تعالى، فإذا كان النظام الكوني قد خلقه الباري عن غير مثال سابق، ولم تتطرق له يد بشر، فإن الوحي هو النظام الشرعي الذي لم تتطرق له يد بشر ولا جان، وفي اختيار إدماج هذه الآية في هذا السياق من البلاغة والفخامة ما لا يخفى على ذي نظر، كيف لا وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)؟

٢- ومنها: بيان عظيم قدرة الله تعالى، فعند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢ ص ٢٣٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠ ص ١٢٠.

رُبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ (إبراهيم: ١٣-١٤)، قال ابن عاشور: «وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجاً للتعليم بالوعيد، وإظهاراً لعظيم القدرة»^(١).

٣- ومنها: إثبات البعث، فعند قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨)، قال: «واعلم أن قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ إدماج للتعليم في التذكير، وليس من آية الشمس للناس؛ لأن الناس لا يشعرون به»^(٢)، أي: أن ذكر ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ جاء تعليماً للناس بأنها تجري ليوم تستقر فيه وتتوقف، وهو مما يجهله الناس وقتئذ، وفيه إثبات البعث ضمناً.

المطلب السادس: تمثيل حالة بحالة:

ومن أعراض الإدماج: تمثيل حالة بحالة؛ لبيان معنى وتوضيحه، فعند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (النحل: ٧١)، يقول ابن عاشور: «وُفِّرَعُ على هذه الجملة تفريع بالفاء على وجه الإدماج قوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾، وهو إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سواوا بعض المخلوقات بالخالق، فأشركوها في الإلهية فساداً في تفكيرهم، وذلك مثل ما كانوا يقولون في تلبية الحج «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»^(٣)، فمثل بطلان عقيدة الإشراف بالله بعض مخلوقاته بحالة أهل النعمة المرزوقين؛ لأنهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم، فكيف يسوون بالله عبيده في

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٢ ص ٢٤٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٢٣١.

(٣) مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج ٢ ص ٨٤٣، رقم الحديث: (١١٨٥).

صفته العظمى وهي الإلهية؟! (١).

فغرض الإدماج تمثيل حالة من أشرك مع الله خلقه، بحالة أهل الرزق مع العبيد حين رفضوا تشريكهم بأموالهم، وفيه بيان بشاعة قبولهم الشركاء مع الله تعالى في حين رفضوا تسوية عبيدهم بهم في الأموال، وللإدماج في هذه الآية موقع لطيف، وذلك بمباغتته المخاطبين من حيث لم يتوقعوا مثل هذا البيان، وهذه سنة القرآن في الاستدلال على أهل الشرك، وهي جميعها كاشفة مدى تفاهة عقولهم، وضعف أفئدتهم، وهو كذلك مقدمة بين يدي الآيات الآتية المتحدثة عن شرك الكافرين الآتية، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (النحل: ٧٣).

المطلب السابع: الامتنان أثناء الاستدلال:

غرض الإدماج أثناء الاستدلال ذكر المنة ليستجيب الناس للأمر الإلهي، فمن شأن المخاطب المنكر: أن يعيد الكرة مراراً إذا استحضر نعم الخالق عليه؛ ولذلك وجدنا أن غالب هذا الغرض قد كثر في السور المكية، وهو يزيد الأمر بياناً أن الإدماج له غرضه الموضوعي الذي يثري السياق القرآني، بما يكون خدمة للمعنى الأصلي.

فمن ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٥-٦)، حيث قال: «والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا﴾ وما بعده إدماج للامتنان» (٢)، فذكر الدفء والمنافع من أكل ورؤية، أدمج ذكره في المقصود الأساس، وهو: خلق الأنعام الذي جاء في سياق الاستدلال على الخالق، فهذه النعم ذكرت امتناناً على المخاطبين، بأن ما بهم من نعمة فهي من الله عز وجل؛ لأن ذلك أدعى للاستجابة والامتثال، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ١٧٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ٨٢.

هَامِدَةٌ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٌ ﴿٥﴾ (الحج: ٥)، حيث قال ابن عاشور: «والبهيج: الحسن المنظر السار للناظر، وقد سيق هذا الوصف إدماجاً للامتنان في أثناء الاستدلال، امتناناً بجمال صورة الأرض المنبته؛ لأن كونه بهيجاً لا دخل له في الاستدلال، فهو امتنان محض»^(١).

والملاحظ: أن ابن عاشور يفرق ما بين ما جاء استدلالاً وما جاء ضمن الاستدلال، فتركز نظره حول الاستدلال وما يحتاجه من معانٍ، وما يرتبط بذلك من معانٍ لا تدخل في حيز الاستدلال بقدر ما هي داخلة في حيز الامتنان، الذي هو في حقيقته وجوهه معيناً ومقوياً في الاستدلال، وهذه المنهجية في التعامل مع النص القرآني من الدقة بمكان، ما تحتاج إلى إعادة طرق أبواب الفكر والتأمل في فهم نصوص الكتاب، على هذا المنهج الذي يجمع بين دقة المقصد السياقي، وبين توابعه ولوازمه من المعاني التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَلْوَنُ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (يس: ٣٣) داخل - كذلك - فيما نحن فيه، فهو امتنان يجسده الاستدلال، «وإخراج الحب من الأرض هو إخرجه من نباتها، فهو جاء منها بواسطة، وهذا إدماج للامتنان في ضمن الاستدلال؛ ولذلك فرع عليه ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾»^(٢)، وهذا التفريع غاية الامتنان ومقصده.

وسبب إخراج النبات من الأرض نزول الماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢)، يقول ابن عاشور: «ولما في السماء من آية المطر الذي به تنبت الأرض بعد الجفاف، فالمعنى: وفي السماء آية المطر، فعدل عن ذكر المطر إلى الرزق؛ إدماجاً للامتنان في الاستدلال، فإن الدليل في كونه مطراً يحيي الأرض بعد موتها، وهذا قياس تمثيل للنبات، أي: في السماء المطر الذي ترزقون بسببه»^(٣).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٧ ص ١٤٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٢٢٥.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧ ص ٢١.

هذا في امتنان الله على خلقه في نعمة الرزق، وكذلك الأمر في نعمه تعالى فيما يخص الكون من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْيَلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (القصص: ٧١)، فالامتنان في الآيات يكون الضياء الذي جعله الله تعالى لعباده في الأرض من أعظم النعم التي تدل على إلهيته، وهو امتنان على الناس إن هم تدبروا القول، يقول ابن عاشور: «وعبر بالضياء دون النهار؛ لأن ظلمة الليل قد تخف قليلاً بنور القمر، فكان ذكر الضياء إيماءً إلى ذلك، وفي تعدية فعل ﴿يَأْتِيكُم﴾ في الموضوعين إلى ضمير المخاطبين، إيماءً إلى أن إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس، وهذا إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال على الانفراد بالإلهية»^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ٥)، فالاستدلال بهذه النجوم على قدرته تعالى شيء، وإدماج منته بأن جعلها زينة للعباد شيء آخر، فذكر التزيين هو المنة في سياق الاستدلال، يقول ابن عاشور: «وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال، أي: زيناها لكم»^(٢).

فالسياقات في هذا الجانب ثلاثة أنواع، وهي: سياق الاستدلال، وسياق الامتنان، وسياق الامتنان أثناء الاستدلال، ويبين الفرق بين هذا النوع وبين النوعين الآخرين من خلال أسلوب الإدماج، فهو الذي يبرز هذا النوع من السياق، حيث ضم إلى الاستدلال الذهني، الامتنان العاطفي، والنوعان الآخران من السياق لهما أمثلة حاضرة في كتاب الله تعالى، فمن أمثلة الإدماج في سياق الامتنان: قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٠ ص ١٠٠.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧ ص ٢١.

(البقرة: ١٠٥)، فيقول ابن عاشور: «والرحمة - هنا - مثل الخير المنزل عليهم، وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم»^(١)، فالسياق سياق امتنان على المؤمنين في إنزال الخير الذي هو رحمة منه تعالى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إدماج للامتنان في خلال المدح وإلا فليس الإنفاق من غير ما يرزقه المنفق»^(٢).

ومن أمثلة الإدماج في سياق الاستدلال: قول تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (فصلت: ٩) حيث يقول ابن عاشور: «وأدمج في هذا الاستدلال بيان خلق هذه العوالم، فمحل الاستدلال هو صلة الموصول، وأما ما تعلق بها إدماج»^(٣)، فهذه أنواع الإدماج فيما يتعلق بالاستدلال، وهي تؤكد حيوية الإدماج في هذا الباب.

المبحث الثالث

الجانب النقدي

المطالع لتفسير ابن عاشور يجده مفسراً عالماً مدققاً محققاً لمعاني الألفاظ، ناظراً للجملة والمفردة على حد تام من الرعاية والعناية، وهذا لا يمنع بطبيعة الحال مناقشته في بعض الجزئيات إن لزم الأمر، فمائدة التطبيق هي خير مكان لهضم الأقوال، وبيان راجحها من مرجوحها، وهو ما يثري الجانب النقدي في كتب التفسير، الذي يحتاج من الباحثين جهوداً جبارة في هذا الباب، فالمنهج النقدي المنضبط الذي يخضع لأصول علم التفسير العامة، وقواعده الثابتة، بالإضافة إلى النظرات الجريئة، والتجديدات القيومية، ضرورة من ضروريات البحوث الجادة، إذ به تتخلص الكلمات من شوائبها، والتفسيرات من دخيلها، وسأقف مع هذه الأمثلة التي تبين المقصود:

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١ ص ٦٣٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ١٧٢.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ١٧.

أولاً: اقتصار النظرة على زمان النزول:

اقتصرت نظرة ابن عاشور رحمه الله تعالى أحياناً على زمن نزول الآية، دون النظر إلى استقرارها في سياقها، ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦)، يقول ابن عاشور: «ولا خلاف في أن هذه الآية نزلت في الحديبية سنة ست حين صد المشركون المسلمين عن البيت كما سيأتي في حديث كعب بن عجرة^(١)، وقد كانوا ناوين العمرة وذلك قبل أن يفرض الحج، فالمقصود من الكلام هو العمرة؛ وإنما ذكر الحج على وجه الإدماج تبشيراً بأنهم سيتمكنون من الحج فيما بعد، وهذا من معجزات القرآن»^(٢).

فكون الآية نزلت عام الحديبية لا يجعل الحج مذكوراً فيها على سبيل الإدماج، فالحج مقصود لذاته، ودليل ذلك سياق الآيات جميعها، وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن نعهده من قبيل الإدماج الزماني - إن صح التعبير -، وهو منته بالتكامل السياقي فور نزول السوابق واللواحق من الآيات، وهذا اللون من الإدماج عزيز في القرآن، إذ إنه مؤقت بنزول بقية الآيات، لكن وجه الإدماج - عند ابن عاشور - أن الآية لما نزلت عام الحديبية، ولم يكن الحج حينئذ مفروضاً، كان ذكره على سبيل إدماج حكم في حكم مشابه له في مجموعة من الأركان، الغرض منه التبشير بما سيقوم به المؤمنون

(١) قال البخاري: حدثنا الحسن بن خلف قال: حدثنا إسحاق بن يوسف عن أبي بشر رقاء، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقمله يسقط على وجهه فقال: «أيؤذيك هوامك؟» قال: نعم، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق وهو بالحديبية، لم يتبين لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن يطعم فرقاً بين ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام»، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث: (٣٩٢٧)، ج ٤ ص ١٥٢٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ٢١٣.

من الحج في الزمن القريب، وهذا من معجزات الإخبار بغيب المستقبل، فهو تبشير وتسلية للمؤمنين بما وقع عليهم في هذا العام، بأنه إن حصل لكم ما حصل من عدم القيام بالعمرة كما أردتم، فسيكون لكم وزيادة على ذلك من الحج لبيت الله الحرام، وهذه البشرية مندمجة في ذكر الحج في سياق آية نزلت عام الحديبية، ولم يكن الحج مشروعاً بعد كما ذكر ابن عاشور.

ثانياً: العدول عن رأي الصق بالإدماج:

سبق بيان قضية منهجية في المبحث الثاني، وهو أنه عند تعدد الآراء يكون الإدماج مقبولاً على رأي، غير مقبول على آخر، وهنا نرى أن ابن عاشور رحمه الله تعالى قد خالف هذه المنهجية الدقيقة، فرجح رأياً وحمله على الإدماج، على أن الحقيق بالإدماج هو الرأي الآخر، فعند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَعَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام: ٤١).^(١)

يقول ابن عاشور: «وهذا إدماج للنهي عن الإسراف، وهو نهى إرشاد وإصلاح، أي: لا تسرفوا في الأكل»^(١)، فالذي يراه ابن عاشور أن النهي عن الإسراف هو في الأكل خاصة وليس عاماً في كل شيء، وذهب الطبري إلى عموم معنى الإسراف في الآية فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى بقوله: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾، عن جميع معاني الإسراف، ولم يخصص منها معنىً دون معنى»^(٢).

وخالفه ابن كثير، فذهب إلى خصوص النهي عن الإسراف في هذه الآية فيما يتعلق بالأكل فقال: «ثم اختار ابن جرير قول عطاء: إنه نهى عن الإسراف في كل شيء، ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿ كُلُوا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٧ ص ٥٢.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢ ص ١٧٦.

مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ﴿١﴾ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا
عَلَى الْأَكْلِ، أَي: وَلَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَضْرَةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ»^(١).

والذي ذهب إليه الحافظ وابن عاشور رحمهما الله هو الأوجه، وهو الألق بالسياق، وعموم النهي عن الإسراف في عموم الأحكام مفهوم من النصوص الأخرى، لكن الراجح في هذه الآية بعينها خصوص النهي عن الإسراف في الأكل، ولا يلزم القول بالإدماج على ترجيح ابن عاشور، ولو رجح رأي الطبري لكان للإدماج وجهة قوية، وذلك أن سياق الآية يتحدث عن الأكل، وذكر النهي عن الإسراف في الأكل داخل في هذا المعنى، أما على القول بعموم النهي عن الإسراف فيصدق عليه تضمين معنى سيق في الآية معنى آخر، فالإدماج يحسن وجهه على رأي الطبري، لا على رأي ابن عاشور رحمهما الله تعالى.

وأحياناً لا ينبه رحمه الله تعالى على أن الإدماج يصح على تفسيره للآية، ولا يصح على التفسيرات الأخرى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ (النحل: ٢٠-٢١).

يقول ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى: لأن هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين، وتمهيد لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة النحل: ٢٢)»^(٢).

ويصح القول بالإدماج على جعل ضميري ﴿يَشْعُرُونَ﴾ و﴿يُبْعَثُونَ﴾ عائدين إلى الكفار، وقد نبه ابن عاشور على ذلك بقوله: «ولذلك فالظاهر أن ضميري

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمود

حسن، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الجديدة ٤١٤ هـ ١٩٩٤ م، ج ٢ ص ٢٢٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ١٠١.

﴿يَشْعُرُونَ﴾ و﴿يَبْعَثُونَ﴾ عائدان إلى الكفار على طريق الالتفات في قراءة الجمهور، وعلى تناسق الضمائر في قراءة عاصم ويعقوب^(١)، أما إذا رجعنا ضمير ﴿يَشْعُرُونَ﴾ للأصنام^(٢)، وضمير ﴿يَبْعَثُونَ﴾ للكفار لم يصح الإدماج، لدخول هذه الجملة فيما تقدم من حيث سياقها الذي سيقت له.

ثالثاً: حمل الآيات على الإدماج وهي ليست منه:

وأحياناً نجد ابن عاشور رحمه الله تعالى يجعل جملة من الآيات من قبيل الإدماج وهي في صميم المعنى الأصلي، وليست معنى مدمجاً كما ذهب رحمه الله، فعند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨).

قال ابن عاشور: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ معطوف على ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧)، فهو من جملة الصلة، وفيه إدماج لكشف باطلهم في تعللاتهم ومعاذيرهم الفاسدة، أي: للذين لا يقبلون الإيمان ويفعلون الفواحش ويعتذرون عن فعلها بأنهم اتبعوا آباءهم وأن الله أمرهم بذلك، وهذا خاص بأحوال المشركين المكذابين، بقريظة قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ﴾ والمقصود من جملتي الصلة: تفضيع حال دينهم بأنه ارتكاب فواحش، وتفضيع حال استدلالهم لها بما لا ينتهض عند أهل العقول^(٣).

ومعنى الإدماج لا يظهر في الآية فهي من صميم السياق، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قال قبلها: ﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يُرِيَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ١٠١-١٠٢.

(٢) وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الضميرين مختلفا المرجع، فرجعوا الأول للأصنام والثاني للكفار،

يُنظر: الطبري، جامع البيان، ج ١٧ ص ١٨٨.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨ ص ٦٣.

جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ (الأعراف: ٢٧)، فالشيطان فتنة لبني آدم وولي للكافرين، فلما ذكر معنى فتنته لبني آدم بين ولايته للكافرين في فعل الفواحش، التي عدها ابن عاشور إدماجاً، وغرضه كشف باطل الكافرين بما يذكرونه من علل وحجج، ومعنى كون الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون: أنهم إذا فعلوا فاحشة عللت لهم الشياطين تلك الفاحشة، وسوَّعتها لهم.

فالآية من قبيل بيان بعض أنواع الولاية التي بين الشياطين والمشركون، هذا من حيث السباق، أما اللحاق فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فهي بيان واضح في كون زينة الله حلالاً لعباده دون الفواحش، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ (الأعراف: ٣٢)، وهي رد - كذلك - على تعللات المشركون فيما تقدم، وعليه فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ﴾ ليس من الإدماج، وإنما هو من صميم المعنى الذي جاء به السياق؛ لأنه المقصود الأساس الذي سيقَّت له المعاني والمقاصد.

يقول الطبري: «فتأويل الكلام إذن: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحاً من الفعل، وهو الفاحشة، وذلك تعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعُدلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه»^(١)، فالطبري يقرر القوة الاتساقية بين الآيتين، وأنهما مترابطتان من حيث إن عدم إيمان المشركون بالله واتخاذ الشياطين أولياء قادهم إلى ارتكاب الفاحشة.

ويقول البقاعي: «ولما جعل إمارتهم في ولاية الشيطان عدم الإيمان عطف على ذلك أمارة أخرى فقال: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ﴾ أي: أمراً بالغاً في القبح كالشرك، وكشف

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٢ ص ٣٧٩.

العورة في الطواف»^(١)، فعدم الإيمان وفعل الفواحش من مقتضيات ولاية الشيطان، وبه يتأكد أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ ليس إدماجاً، بل بياناً لمنهج الكافرين عند الوقوع في الفواحش.

وعند قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَظَفَكُمْ النَّاسُ فَآوُونَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُنْصِرُهُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٦)، يقول: «وجملة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنة بنعمة النصر، وتوفير العدد بعد الضعف والقلّة؛ فإن الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق»^(٢).

قلت: الحق أن جملة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ليست إدماجاً، فمعنى الإدماج بعيد هاهنا، فالحق سبحانه وتعالى يمتن على عباده بأنه قد آواهم بعد القلة والاستضعاف، ونصرهم بعد الخوف، ويأتي موقع جملة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ موقفاً أخذاً، فلا تتم منة النعمة إلا بذكر الرزق، بل هو الثمرة العظمى، والمقصد الأسمى بعد توافر الأمن؛ ولذلك قرنه المولى سبحانه وتعالى في آية أخرى بالأمن فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤)، وما يصيب البلاد التي يكثر فيها الفقر والجوع من انعدام الأمن إلا أكبر دليل على هذا الذي نقول، فلولا نعمة الرزق لدام الخوف وانعدم الأمن.

فليس ذكر الرزق في هذه الآية من الإدماج، فقد سبقت الآية لتعداد هذه النعم، فالإيواء الذي يمثل الأمن الاجتماعي، والتأييد بالنصر الذي يمثل الأمن السياسي والعسكري، ورزق الطيبات الذي يمثل الأمن الاقتصادي، وبغير هذه الثلاثية لا يتحقق أمن أي مجتمع من المجتمعات البشرية، هذا ما يريد تركيزه القرآن في العقول، فإذا قلنا بالإدماج

(١) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ج ٣ ص ٢٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٩ ص ٧٥.

أفقدنا نعمة رزق الطيبات أصالتها، وجعلناها تابعة لغيرها من النعم، وهي مقصودة لذاتها، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤) يعزز هذا المعنى الأصيل.

رابعاً: تخصيص جزء من المعطوفات بالإدماج:

وأحياناً نجده رحمه الله تعالى يجعل جزءاً من الآية إدماجاً شبيهاً بالتخصيص، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)، يقول ابن عاشور: «والذي أراه في تفسير هذه الآية أن المقصود الأهم منها: قتال أهل الكتاب من النصارى كما علمت، ولكنها أدمجت معهم المشركين؛ لئلا يتوهم أحد أن الأمر بقتال أهل الكتاب يقتضي التفرغ لقتالهم ومشاركة قتال المشركين، فالمقصود من الآية هو الصفة الثالثة: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾.

وأما قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَرَسُولُهُ﴾، فإدماج، فليس المقصود اقتصار القتال على من اجتمعت فيهم الصفات الأربع، بل الصفة المقصودة هي التي أردفت بالتبيين بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وما عداها إدماج وتأكيد لما مضى، فالمشركون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون شيئاً مما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا شريعة لهم، فليس عندهم حلال وحرام، ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام، وأما اليهود والنصارى فيؤمنون بالله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله في دينهم^(١)، ولكنهم لا يدينون دين

(١) هذا الكلام لا يصدقه الواقع ولا التاريخ، فإيمانهم بالله تعالى إيمان باطل؛ لأنه قام على باطل في دعوى بنوة المسيح وعزير، وهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله في دينهم؛ لأنه دين محرف عن دين الله، والله لم يقل: ولا يحرمون في دينهم؛ وإنما قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، وما حرمه الله شيء، وما هو محرم في دينهم الباطل شيء آخر، فجميع الصفات منطبقة على أهل الكتاب، كما أطبقت عليه كلمة المفسرين.

الحق وهو الإسلام»^(١).

أقول: ما ذهب إليه ابن عاشور رحمه الله في جعل الآية من الإدماج لا ينهض، فالآية جاءت متحدثة عن الكفار كافة، دخل فيها المشركون والكتابيون المحاربون، ولا دليل يرشح دعوى ابن عاشور في كون الجزء الأول من الآية إدماجاً، فالآية قصدت توجيه الأمر بقتال المشركين وأهل الكتاب، وقيد: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لبيان حال أهل الكتاب في دينهم، حيث إنهم أهل دين باطل، لأجل ذلك أرادت الآية أن تلتفت الأنظار إلى أن الدين المقبول هو الدين الحق، ولو أردنا أن نقدم رأياً في الآية يختص بالإدماج، لقلنا: إنه أدمج قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ على سبيل التخصيص للبيان؛ كي لا يتوهم متوهم بأنهم غير داخلين في هذا الحكم التشريعي، فجاء هذا القيد على سبيل الإدماج، لرد أوهام الأفهام.

خامساً: حمل المفردة على الإدماج وهي من الاحتراس^(٢):

كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٥٢)، قال ابن عاشور: «فقوله: ﴿طَوْعًا﴾ إدماج؛ لتعميم أحوال الإنفاق في عدم القبول، فإنهم لا ينفقون إلا كرهاً؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٤)»^(٣).

وما قاله ابن عاشور في غرض التعميم مستفاد من ذكر الحالتين: الطوعية والكراهية مجتمعتين، يقول ابن عطية: «والطوع والكره يعمان كل إنفاق»^(٤)، وحمل الطوعية على الإدماج بعيد إذ الغرض المسوق له الآية بيان أن المنافقين لن تقبل نفقاتهم على

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠ ص ٦٥-٦٦.

(٢) وهو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال، يُنظر: الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩١هـ، ج ٣ ص ٦٤.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠ ص ١٢٠.

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٣ ص ٤٨.

أي حال من الأحوال، وهذا لا يُستفاد إلا بذكر تينك الحالتين، فقوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ «فائدته المبالغة في تساوي الإنفاقيين في عدم القبول»^(١)، وإن قلنا بإدماج الطواعية لزمننا القول بإدماج الكراهية، وهو بعيد؛ لأن الآية جاءت لا لإثبات عدم قبول النفقات فحسب، وإنما لإثبات عدم قبولها في الحالتين، والخطاب في الآية جاء مباشراً على سبيل الأمر والمقصود منه الجزاء^(٢)، والذي أغرى ابن عاشور بالقول بالإدماج: للحاق، فكونه تعالى أخبر أنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون لا يعني أبداً أن ذكر الطواعية من باب الإدماج، بل إن صح أن يكون شيئاً مدمجاً فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٤)، وفائدته دفع التوهم بأن المنافقين قد ينفقون أموالهم طواعيةً، فجزم الأمر بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون على أسلوب القصر، فقصر نفقتهم على حال الكراهية، وبه يكون غرض الإدماج دفع الاحتمال، وهو من باب الاحتراس.

سادساً: ظهور الإدماج مع بعده عند التحقيق:

ويظهر الإدماج في بعض المواطن، لكنه بعيد عند التحقيق، فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ١٠٦)، يقول ابن عاشور: «و﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ اعتراض بين فعل ﴿تَدْعُ﴾ ومفعوله، وهو إدماج للحث على دعائه الله»^(٣).

قلت: لا يظهر معنى الحث على الدعاء في هذا القيد، بل الحث مفهوم من تضاعيف المعاني المستنبطة من قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، فلما كان المدعو من دون

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التنزيل، ج ٣ ص ١٥١.

(٢) يقول الفراء: «وهو أمر في اللفظ وليس بأمر في المعنى؛ لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم، وهو في الكلام بمنزلة إن في الجزاء كأنك قلت: إن أنفقت طوعاً أو كرهاً فليس بمقبول منك»، يُنظر: الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط ١، ج ١ ص ٤٤١.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠ ص ١٢٠.

الله صفته عدم النفع وعدم الضر، كانت دعوة النافع الضار هي الأليق، أما الجملة الاعتراضية التي هي قيد ضروري في الآية: فلها فائدتان، أولاً: قصر الدعاء على الله جل في علاه وتخصيصه به؛ ثانياً: لتشمل عموم المدعويين من دونه، فلو قال: ولا تدع ما لا ينفعك ولا يضرك، لفهم النهي عن دعاء ما لا ينفع ولا يضر فحسب، فلما قال: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شمل جميع المدعويين سواه، ليتحقق الشمول المنافي للاستثناء، يقول السعدي: «وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالى»^(١).

ولا يظهر معنى الإدماج على هذا التوجيه، أما على توجيه ابن عاشور: فله وجهته، وإن كان بعيداً؛ لأن الغرض واحد والمعنى واحد، فهو نهى عن دعاء غير الله تعالى؛ لأن الدعاء من خصائص التوحيد التي لا تصح إلا له سبحانه وتعالى، فأين المعنى الذي سيق إدماجاً على هذا المعنى!؟

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (مريم: ٦٨)، يقول ابن عاشور: «والقسم بالرب مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم إدماجاً لتشريف قدره»^(٢).

قلت: وهذا تحميل للإدماج فوق المراد، وإضافة القسم بالرب إلى الضمير المخاطب به عليه الصلاة والسلام لا يوجد فيه معنى مضمن، بقدر ما فيه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، ورفع لمكانته التي لم يعلم قدرها قوموه، وإلا لجعلنا كل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إدماجاً من هذا الباب، بل هذا الخطاب جاء متابعاً لما تقدم من خطابه عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٤-٦٥)، وإذا كان

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلل اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م، ص ٣٧٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٦ ص ٦٧.

للإدماج شبهة هاهنا أذهبتها ضمائر الخطاب المتقدمة.

وكذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣١) ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١-٣٢)، يقول ابن عاشور: «لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها، ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس، فعقب ذكرها بالامتنان بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾، وبقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وأما حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنه ذكر إعراضهم عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة^(١)، فعقب بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، فأدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض، فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به»^(٢).

قلت: ومعنى الإدماج على هذا التوجيه غير ظاهر، والظاهر أنه أدمج قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، وذلك أن السياق في تعداد النعم على الخلق لبيان منته ورحمته تعالى بخلقه، ومن تلك المن منة جعل السماء سقفاً محفوظاً منه تعالى، حافظاً لما تحته، ويكون السياق على وتيرة واحدة في ذكر المن وهي سنة القرآن المعهودة، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، يأتي إدماجاً لبيان غفلتهم عن تدبر نعمه ومننه، فغرض الإدماج بيان الغفلة في سياق المنة، لا بيان المنة في سياق المنة، وبه يتضح مفهوم الإدماج ومقصوده.

(١) يقول الزمخشري في وصف المشركين: «هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية؛ كالاستضاءة بقمريها، والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها، وهم عن كونها آية بيّنة على الخالق ﴿مُعْرِضُونَ﴾»، الزمخشري، الكشاف، ج ٣ ص ١١٦، وتفسير الزمخشري أدق مسلماً مما ذهب إليه ابن عاشور، فأعراضهم عن كونها آية على الخالق، لا على أنها في ذاتها منفعة، ولعل ما ظهر له من الإدماج قاده لهذا القول.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٧ ص ٤٣.

سابعاً: توجيه الإدماج إلى معنى وهناك ما هو أصح منه:

ونجده يوجه الإدماج إلى معنى وهناك ما هو أصح منه، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۗ﴾ (الزمر: ٩)، يقول ابن عاشور: «وعدل عن أن يقول: هل يستوي هذا وذاك؟ إلى التعبير بالموصول؛ إدماجاً للثناء على فريق، ولذم فريق، بأن أهل الإيمان أهل علم، وأهل الشرك أهل جهالة؛ فأعنت الجملة بما فيها من إدماج عن ذكر جملتين، فالذين يعلمون هم أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، والذين لا يعلمون هم أهل الشرك الجاهلون قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (الزمر: ٦٤)، وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم؛ لأن كليهما نور ومعرفة حق، وأن الكفر أخو الضلال؛ لأنه والضلال ظلمة وأوهام باطلة»^(١).

وما ذهب إليه ابن عاشور رحمه الله من كون الآية جاءت على أسلوب الإدماج صحيح، لكننا نستطيع أن نسجل توجيهاً آخر لغرض الإدماج، فهو يرى أنه للثناء على فريق وذم للآخر، والآية جاءت في سياق مدح المؤمنين الذين يعلمون، وذم الكافرين الذين لا يعلمون، فإذا كان هذا هو غرض الإدماج فهو يتفق مع سياق الآية، وعليه فلا حاجة للقول به؛ لأن الإدماج هو تضمين الكلام الذي سيق لمعنى معنى آخر، وعليه فالصحيح أن غرض الإدماج في الآية: بيان أثر العلم في سلوك المؤمن، والجهل في غير المؤمن، فعلة القنوت ورجاء رحمة الله تعالى: علم المؤمنين، كما أن الضلال والعصيان: علة الجهل، هذا هو غرض الإدماج، وهو المعنى الذي تضمنه السياق بالإضافة إلى المعنى الذي سيق له الكلام أصالةً.

ثامناً: حمل الآية على الإدماج مع انعدام الدليل:

وأحياناً يحمل معاني بعض الآيات على الإدماج وهي ليست منه؛ لانعدام الدليل على

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤ ص ٢٧.

ذلك، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٢١)، يقول ابن عاشور: «أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ فهو إدماج للتذكير بحالة الممات واستواء الناس فيها من نافع وضار»^(١).

أقول: جعلُ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ إدماجاً إدماجٍ لا يظهر، فمجيء هذه الجملة ضمن هذا المثال للتذكير بحال الإنسان الفاني في هذه الحياة، فيما أن تكون الآية برأسها من باب الإدماج - وهو بعيد -؛ لأن الأمثال تأتي لبيان معاني السياق، وإما أن لا تكون إدماجاً، وهو الصحيح؛ لأن هذه الجملة جاءت ضمن معاني سياقها، ولم تُضمَّن معنىً جديداً، نعم هي حملت معنىً لكنه ضمن السياق الطبيعي للمعاني الواردة، والإدماج هو تضمين الكلام الذي سيق له الكلام معنى آخر، وهو غير متحقق في هذا المثال.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤ ص ٥٩.

الخاتمة

نخلص من هذا البحث بمجموعة من النتائج التي نستطيع تسجيلها بنقاط مختصرة موجزة، وهي على النحو الآتي:

أولاً: عرفنا الإدماج بأنه: «تضمن المعاني القرآنية التي سيقى لمقصد معنى رديفاً يحقق مقصوداً آخر، يتلاءم مع المعاني الأصلية بحيث يصبح من جنسها».

ثانياً: كانت تطبيقات المفسرين لهذا الأسلوب البلاغي نادرة هشة، وما كتب تنظيراً في كتب البلاغة والنقد لا يغطي المطلوب النظري، فضلاً عن المطلوب التطبيقي.

ثالثاً: للإدماج مجموعة من الأغراض، تتحقق من خلال فهم المفسر لأبعاد النص القرآني، مع استحضاره للمعاني المسوقة أصالة، والمعاني المسوقة لتحقيق أغراض تخدم الأصل.

رابعاً: تفوق ابن عاشور على بقية المفسرين في هذا الجانب من البلاغة، حيث كان رحمه الله تعالى سباقاً في هذا المضمار، فأتى بما لم يسبق إليه.

خامساً: هناك بعض الملاحظات النقدية التي سجلتها على ابن عاشور في هذا الباب، وهي من قبيل الآراء التي يصح الاختلاف فيها، وإنما أطرح قناعتي بين يدي الباحثين، ولكل وجهة هو موليتها تجاه قناعاته الخاصة، ما دامت منضبطة بأصول العلم، ولا تخرج عن أدوات الفهم.

سادساً: أوصي بأن تكتب دراسة أكاديمية تطور طرح هذا الأسلوب البلاغي في كتاب الله تعالى، بحيث يُفردها باحث بدراسة متكاملة، تغطي موضوع الإدماج من جميع جوانبه المختلفة، ولتأخذ الجانب النظري، والجانب التطبيقي، نرى فيها رأياً جديداً متكاملًا، ونظرة فاحصة مدققة تحقق المطلوب، وتزيل الغبار عن الخبيء المدفون.

سابعاً: الدراسات البلاغية الأسلوبية في كتاب الله تعالى تحتاج إلى خدمة حقيقية من الباحثين الجادين المجددين، فهي ما زالت طرية خضرة، تنتظر أيدي القاطنين، لأفواه الأكلين، وعيون المبصرين المستكشفين، لا آذان السامعين المتلقين، وفي ذلك ردٌّ على كل

زاعم يزعم أن علم البلاغة القرآني قد احترق أو شارف على الاحتراق.

ثامناً: كان لي مع الإدماج وقفات وجدت فيها أثر فضل الله تبارك وتعالى على نفسي الضعيفة، فحمدته على ما رزقني من واسع علمه، ومن عظيم فضله، فله الحمد في الأولى والآخرة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والله الأمر من قبل ومن بعد.

المراجع والمصادر

- ١- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.
- ٢- ابن أبي الأصبغ، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر العدواني، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- ٣- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ٢.
- ٤- الألويسي، محمود الألويسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٥- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ط ١.
- ٦- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت - لبنان، ط ٣، ٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٧- بسبح، أحمد حسن بسبح، ديوان ذي الرمة، دار الكتب العلمية، شرح وتحقيق: أحمد حسن بسبح، بيروت - لبنان، ط ١، ٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٨- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٩- البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت - لبنان.
- ١٠- التفتازاني: سعد الدين بن مسعود بن عمر، المختصر، طبعة مصورة دار السرور، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ضمن شروح التلخيص.

- ١١- التفتازاني: سعد الدين بن مسعود بن عمر، المطول، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٣٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- ١٢- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٤٠٥هـ.
- ١٣- الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٩٠م.
- ١٤- الحموي، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان، ط ١، ٩٨٧م، تحقيق: عصام شعيتو.
- ١٥- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، ط ١.
- ١٦- الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق - سوريا.
- ١٧- ابن رشيقي، أبو علي الحسن بن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ٥، ٤٠١هـ-١٩٨١م.
- ١٨- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ٣٩١هـ.
- ١٩- الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
- ٢٠- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٢١- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٢٢- السبكي، بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، طبعة

مصورة دار السرور، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ضمن شروح التلخيص.

٢٣- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٤- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٢٥- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٦- الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد، السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٢٧- الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٨- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٩- الطيبي، شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله، التبيان في البيان، تحقيق: د. توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت - الكويت، ١٩٨٦م، ط ١.

٣٠- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣١- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة

العصرية، بيروت - لبنان، ١٤١٩ هـ.

٣٢- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م، ط ١.

٣٣- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٣٤- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط ١.

٣٥- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، دار ومكتبة الهلال.

٣٦- القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٩٨ م.

٣٧- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الجديدة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

٣٨- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٣٩- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٤٠- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤١- المغربي، ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، طبعة مصورة دار السرور، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ضمن شروح

التلخيص.

٤٢- المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د.محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت - لبنان، دمشق - سوريا، ط ١، ٤١٠ هـ.

٤٣- ابن منقذ، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي، البديع في نقد الشعر، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٤٤- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٤٥- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنونه وعلومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط ١، ٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٤٦- يعقوب، إميل بديع، ديوان الحارث بن حلزة، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩١ م.

